

مقدمة

جمعت هذه المقالات والمحاضرات بين دفتي كتاب واحد، على ما فيها من عدم التسلسل الزمني أو الترابط الجغرافي. غير أني - تجنباً للإعادة وتوخياً للتنسيق - حذفنا نبدأ هنا، وأضفت نبدأ هناك، كما أدرجت المراجع والهوامش في جدول موحد تسهيلاً لمن يستريد.

أما ضعف الترابط فهو طبيعي بحكم ظروف التأليف. لم يكن القصد وضع مؤلف في تاريخ الطب، شامل الأحداث ومتسلسل الأبواب، ولذا اكتفيت بجمع شذرات نثرت على مر السنين. وقد يتلمس القارئ خيطاً خفياً يصل ما بين هذه المناقشات، وقد يستقرئ منه سر التركيز في أوائل تاريخ مهنة الطب. ولعل هذا الخيط هو تقني جهد الإنسان المطرد وهو يحاول بادئ ذي بدء، تكييف نفسه في بيئته، والاستجابة إلى تحدياتها استجابة إيجابية فعالة.

والعبرة في مثل هذا الفضول ليست متعة ذهنية عابرة أو تغنياً بتقدم اليوم مع الشئمة بأخطاء الماضي، ولكنها عملية «جرد» لما اكتسبه الإنسان من الخبرة والمعرفة منذ أن وعى لنفسه، علّه يتعرف على العناصر التي تضمن استقامة تقدمه وإطراده.

والخبرة لا تكتسب بمجرد تعاقب السنوات والأحداث، وإلا كانت حجارة لندن - على حد قول برناردشو - أعلم من أحكم الحكماء. والخبرة لا تأتي إلا لمن يتعظ (والسعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه)، وأتمس الناس وأخيهم من لا يتعظ لا بنفسه ولا بغيره.

وإذا سمح لي بسوق مثل مستمد من الطب، قلت إن الاستجابة إلى الحياة تمائل الاستجابة إلى الصدمات والأمراض فإن الإصابة الأولى إما أن تكون قاتلة، وإما أن تشفى تماماً، وإما أن تترك عاهة عارضة أو مستديمة.

والشفاء على أنواع: فنه ما يكسب حصانة ضد أية إصابة نالية، ومثله مثل الدهن المتزن الذى يكتسب من المحن خبرات يحل بها المشاكل إذا تكررت أو تشابهت. ومنه ما لا يبني أية مناعة فيظل الجسم معرضاً لنكسات قد تترك منفردة آثاراً طفيفة، ومجتمعة آثاراً شديدة. وأولئك الذين يبرءون على هذا النحو تتركز في أذهانهم عقد لا تترك لهم مجالاً للتفكير المستقيم.

ومنه أخيراً، ما يستجيب إلى أى تحد خارجى برودد تفوق الكفاية وتبلغ من الحدة والحجم ما يجعلها أمراضاً ذاتية، وتلك هى أمراض الحساسية والعلق والانفصام.

وإذا طبقنا هذا التقسيم على أنفسنا وجدنا أن منا قلة تستوعب أساليب العلوم الحديثة وتتخذ منها قدوة ومنهاجاً، وأن منا من يثور ضد قصور حاضره فيعمد إلى المفارقة بأسلافه، وأن منا من يلتهم كل ما يقدم له على أنه علم، دون تمييز أو هضم، فلا يستطيع تمثيله، بل يحتفظ به كأنه زائدة التصقت به.

وفي هذه الاستجابة الأخيرة أضخم خطر يهددنا. إن حقيقة اليوم قد تكون غلط الغد، وقد ترتد فتكون حقيقة بعد الغد. وليست أعلى النظريات سوى فروض قابلة للاستثناف والنقض، وعندى أن أقل تجربة تبين وجه الضعف فيها تدعو إلى الابتهاج لا إلى الانزعاج، من حيث إنها تفتح منفذاً جديداً نحو المعرفة، وها نحن نرى لافوازييه يكشف عن الأكسجين حين يجد أن أكسدة المعادن تزايدت من وزنها، على حين أن النظرية السائدة كانت تؤكد ضياع عنصر وهمى (اللاهوب) كان يعد عندئذ مقوماً أساسياً من مقومات الأجسام الملتببة. كما نرى أينشتين يلاحظ اختلافاً بين الواقع والحساب في موقع كوكب من الكواكب، فيصل بهذا إلى نظرية النسبية التى أدت إلى أضخم الإنجازات كتفجير الذرة ومساواة الطاقة بالمادة وإخطاء هندسة إقليدس* التقليدية.

ومع هذا فإننا - بدافع كسل كامن في أذهاننا - كثيراً ما نسكتفى بقبول طب عصرنا، ونحن على يقين من أن أولادنا سوف يهزءون من أبهر نظريتنا الراهنة. ومن هنا ضرورة العودة إلى تاريخ مهنتنا لتتفقد تعثرها كما يتفقد عالم النفس تطور ذهن الأطفال أو عمليات ذهن الإنسان البدائى ليتفهم ذهن البالغين منا.

* عاش حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، واستخدمت نظرياته الهندسية نحو ٢٥ قرناً.

وفي هذه الدراسة التاريخية خطر آخر يكمن في حصرها على موضوع واحد كالطب في ذاته.

إن الطبيعة - كما قدر لنا أن ندركها - هي مجموعة من الأحاسيس تصل إلى أعضاء حسنا، ويتم تفسيرها في ذهن يختار منها ما يختاره ويحمل منها ما يمله، ويسوق تأويلها في قنوات أعدت فيه بفضل خبرته وحفرت فيه بقوة ميوله وغرائزه.

ومن هنا اختلاف تصوير الفنانين للمرثيات، فواحد لا يرى إلا خطوطاً، وثان لا يعنى إلا بالمسطحات وثالث يمه العمق، ورابع اللون، وخامس يحاول التعبير عن انطباعاته بأشكال مجردة، وهكذا، وهكذا، وإذا أخلص الفنان في أدائه، فإن كل صورة من هذه الصور، ما هي إلا ترجمة المرثيات إلى لغته الخاصة، وقد قيل إن كل ترجمة ليست سوى خيانة.

ولنتظر إلى اللحن الموسيقي، كما قد تراه جمهرة من الناس اختيروا دون تمييز. إن السمفونية للمستمع غير المتخصص مصدر انفعالات فنية أو عاطفية، أما للملحن فهي نغمات تتألف حسب قواعد مجرية، وأما للفيزيائي فهي موجات تترابك وتتتابع وفق معادلات حسابية، كما أنها عند الفسيولوجي ذبذبة ترن اثتلافاً وأوتار الأذن الداخلية، وعند العازف طول أنابيب أو شد أوتار، وهي لصانع الآلة أخشاب وأشكال وأحجام وتجايف. ثم أن المؤرخ قد يعنى بأصل اللحن الجغرافي، ويتاريخه، وبالظروف العاطفية أو الاجتماعية التي أدت إلى تأليفه، وملحنين قدامى أثروا على تأليف اللحن.

والطب لا يختلف عن أي فن من حيث تباين أوجهه وعددها، فهو علم في بحوثه، وفلسفة في تفسيراته، وإنسانية ووجدان في ممارسته، وتنظيم في تطبيقه، وسياسة في تدبير خدماته.

وهو بالإضافة إلى هذا خاضع للقوى التي تسيطر على حاضره، يستمد وحيه من القيم المعاصرة له. وهو يواجه اليوم ما لم يعرفه بالأمس، وهو خدمة الجماعة، وعلى الطبيب أن يواجه هذا الانقلاب ويوجهه. ولا شك في أن مجاله يتسع للفيلسوف والفنان وعالم الرياضيات والكيمائي والاجتماعي وعالم الأحياء والفيزيائي والسياسي والشاعر والكتاب والمؤرخ وعالم البيئة وكل مفكر بل كل إنسان. ومن هنا ضرورة التجول حوله للاطلاع

على كامل أوجهه كما يفعل رواد الفضاء وهم يحاولون التقاط صور الأقمار الخفية عن أنظارنا.

والرجل قد يكون موهوباً في عمل ما وغاشماً في عمل آخر. فليس عليه إلا استغلال ما أوق من المواهب على خير وجه. روى عن راهب طلب الرهبنة بعد أن أمضى حياته (بهلواناً) يجمع القوات من عرض لعباته في الطريق العامة، وهو جاهل لا يعرف القراءة، بل يجهل كيف يصلى، روى أن رؤسائه في الرهبنة لاحظوا علامات رضاء السماء عنه، وتقدمه في سبيل القداسة، مع جهله وسذاجته. فحاولوا معرفة سره وتبعوا خطواته إلى أن وجدوه يوماً وفي وسط الليل، يقف على رأسه ويلعب ألعابه أمام الهيكل، ليقدّم على سبيل العبادة قرباناً مما أوق من المواهب الفريدة، فكانت ألعاب هذا البهلوان الساذج أقرب إلى رضاء السماء من صلوات العديد من زملائه في الرهبنة وتمتعتهم، وبذلك ضرب مثلاً لضرورة ممارسة المواهب التي أودعت فينا واستثارها كبر شأنها أو صغر.

وبالإضافة إلى هذه الأمانة، هناك عهدة أخرى أوّتمنا عليها، وهي الجزء الضيق من العالم الذى نقضى فيه حياتنا، وهذه الحلقة الصغيرة التى نطوف فيها، على كل منا، كالخادم المخلص والوكيل الأمين، تسليمها عند نهاية مطافنا بها، في حال أفضل مما كانت عليه. فلو أن كلا منا تقدم بمجتمعه خطوة الخلة، لكانت بلادنا اليوم في ذروة التقدم.

ترجحت أساليب العلم في محاولته التقدم بين أقطاب مختلفة، هى البدهاة، أو المنطق، أو التخيل، أو أى لون آخر من ألوان التفكير. غير أن أشد الخطر يكمن في الاعتماد على لون واحد من تلك الألوان دون غيره.

والمنطق بمفرده أداة لا غنى عنها للتفكير السليم، وهو المحك المميز بين الاستنتاجات الصائبة وغيرها، وإنما هو حكم يحكم على صحة ما يعرض عليه ولا يضيف إليه شيئاً.

ثم إن أنقر من البدهاة، فهى التى قالت إن الشمس تدور حول الأرض، وإن الأرض مسطحة لأنه لا يعقل أن يقف الناس على رؤوسهم في الجهة المقابلة لنا إذا كانت الأرض كروية. بل إن الأمر يبلغ ب أن أنزج إلى أية نظرية تناقض الظاهر لا اعتقادى بأن ما يبدو لى «نشاز» لا يمكن أن يكون ثمرة نزوة، وأن غرابته لذاتها جديرة بالبحث في مقوماته.

أما بصدد الخيال، فإننا نجد في التاريخ أمثلة لا حصر لها لقفزات انطلقت من تخيلات غريبة أو غير معهودة لأن المعهود لا جديد فيه.

وبلاحظ العالم الفرنسى لوفرييه Leverrier، أن سير بعض الأفلاك لا يطابق مدارها المتوقع، وكان الفارق طفيفاً، يمكن إهماله وحيث أنه خطأ جائزاً في الملاحظات، ولكن (لوفرييه) يابن إلا أن يجمن وجود فلك غير مرئ يدور في جوار الكواكب المضطربة ويحدث اختلالاً في سيرها، ويحلل حسابياً مدى هذا الاختلال فيحدد موقع الفلك المفروض أو أوصافه. ثم يظل هذا الفلك في عالم الخيال إلى أن يشاهده غيره بعد سنوات ويجده عند وصف (لوفرييه) له، وعندما يدعى فاضه لمشاهدته، يابن قائلاً إنه لا حاجة به إلى مشاهدته لأنه يعلم بوجوده علم اليقين، فكأنه رآه بعينى ذهنه.

وكذلك نجد نيوتن Newton، يتعجب لسقوط تفاحة من شجرة، فيفرض قانون الجاذبية العامة الذى يؤكد تجاذب كل الأجسام بعضها بعضاً ويحسب المعادلة التى تحدد قوى هذه الجاذبية، والجاذبية الأرضية قد تبدو لأذهاننا بدئية، غير داعية للتعجب والاستغراب، ولكننا، إذا نظرنا إليها فى شىء من التعمق، وجدناها تفرض وجود قوة تمارس بين جسمين لا رابطة بينهما، وتؤثر على بعد دون وساطة، كأنها شد بدون جبل. وهذه المسألة أى التأثير عن بعد، حار فى تفسيرها الفلاسفة والعلماء على السواء. وقد وضع لها أينشتاين أغرب نظرياته إذ فرض اتعواج الفضاء بجوار كل جسم، وكيف ينعوج فضاء غير مادى؟

بل إننا نستطيع التأكيد بأن ملكة ترك الجراح للخيال والميل إلى الشاعرية فى التفكير هما من أهم مقومات الكشف العلمى. نرى عمر الخيام - أعلم علماء الجبر فى عصره - يقرض الشعر ويؤلف رباعياته الخالدة على الزمان. وكذلك تجد أرخميدس - منذ ألفى سنة أو تزيد - يستشعر خفة أعضائه وهو مغمور فى ماء حمامه فيفرض أن الماء يدفع الأجسام إلى أعلى ويصل بهذا إلى نظرية تعد من أهم قوانين الفيزياء.

وفى عصرنا هذا يبنى الفيزيائيون الطبيعة على قوانين لا عقلية. كمبدأ (أقل جهد) الذى يؤكد أن أية ظاهرة طبيعية كالضوء مثلاً تتبع خط «أقل جهد» فى سيرها عبر المواد المختلفة، وهذا قانون لا سبيل للعقل إلى تفسيره، وإن كان كامناً فى كل قوانين الطبيعة، وإن كان كذلك من الممكن استخلاص كل هذه القوانين منه.

وإذا انتقلنا إلى الرياضيات، رأينا حساب الكهرباء مبنيًا على استعمال رقم $\sqrt{-1}$ ، وهو رقم تخيلي، هكذا والله أسماء الرياضيون، والمفروض أنهم أكثر الناس واقعية. والهندسة قائمة على رقم (ط) الذي يمثل نسبة المحيط إلى القطر، وهو رقم غير قابل للقياس وغير محدود حتى إذا استكملت آلاف الأرقام إلى اليمين، والرياضيات تستعمل ما سمتها رقماً صمماً أي غير عقلية، وهي أرقام كجذر رقم ٢ التريبي، لا يمكن تحديدها.

ثم يتخيل هؤلاء الرياضيون أن هذه الأرقام التخيلية والصم، وغير القابلة للقياس لها كيان حقيق وإن كانت وهمية. ألا يفوق خيالهم خيال أخيل الشعراء؟

فهل علينا أن نسلم بأن الكون والميكانيكا ونظرية الموجات والكهرباء تركز كلها على قواعد غير عقلية، ميتافيزيقية بحتة؟ وكيف نتعجب إذن من قول عالم الرياضيات بوانكاريه Poincaré: «ليس لنا أن نستغرب إحساسنا بالجمال أزاء عرض برهان نظرية هندسية، فإننا إذا فعلنا، أغفلنا ما ينتاب المرء من مشاعر الابتهاج الشبيه بالانجذاب التصوفي أمام تآلف الأرقام وتوافق الأشكال وأناقة الهندسة».

وهذا الوجد الذي يتحدث عنه بوانكاريه هو الشعور ذاته الذي يفرق فيه الشاعر أو الفنان لدى الاستماع إلى قصيدة رائعة أو مشاهدة منظر آخذ. وإن لأذكر صديقاً مولعاً بالكيمياء حضر إلى يوماً وهو في شدة الهياج وقد صرخ في تو دخوله على: «لقد كشف عن المعدن رقم ٨٥»، فسألته: «أيدعو هذا إلى هذا الغلو في الانفعال؟ فأجابني: «ألا تفقه شيئاً؟ إن وجود هذا المعدن فرض منذ سنوات لضرورة وجوده. وهامى الملاحظة التجريبية ترسخ صواب الفرض، أليس هذا داعياً للفرح والتهليل؟».

إن العلميين لا ينظرون إلى الطبيعة نظرة غيرهم. فلأنهم يستشعرون الجمال بمركب من الخواص، يجمع بين الإحساس بالانسجام الهندسي، وإدراك النسب الحسابية، وعناصر أخرى ترن في أذهانهم وتهمز مشاعرهم بقوى لا يدركها غيرهم. إنهم يرون في مجموعة متباينة من المظاهر. كتلون فقاعة صابون أو روعة أجنحة الفراش أو جمال قوس قزح، أو لألة الكواكب، أو النغمات الشجية، أو شاشة (التلفزيون) يرون فيها جميعاً وحدة

شاملة هي قوانين تداخل موجات حسابية بحتة لا تتركز إلى مادة متموجة وبهذا يصلون إلى حقيقة كونية متكاملة تدخل على نفوسهم السرور والصفاء.

وإذا أردنا الوصول إلى هذا المنسوب من الإحساس والمعرفة، فعلينا ترفيه أذهاننا لجمال هذا الكون العجيب. وهذا لا يتأتى إلا بعدم الاستخفاف بأى اتجاه علمي، وبالنظر إلى القضايا من جملة وجوهها. وهذا بالتنقل من نظرة إلى نظرة، ومن تاريخ إلى تاريخ، ومن بلد إلى آخر، فإن من لا يغادر بلده أو عصره لا يعرف لا بلاده ولا عصره.

فإذا قدر لنا هذا، حققنا، تلقائياً، الواجب الذي فرضته علينا طبيعتنا الإنسانية، وهم تسليم أمانينا إلى من يحمل الشعلة من بعدنا في حال أفضل مما تركت لنا عليه.

كلمة

الأستاذ الراحل دكتور محمد كامل حسين

أرسل الأستاذ الراحل الدكتور محمد كامل حسين بهذه الكلمة عند اطلاعه على هذا المقال الذي نشر أولاً في مجلة عالم الفكر الكويتية : وهذا في ١٩٧١/١/٢٦ .

عزيزى بول، أهنتك على مقالاتك «الطبيب الأزلى»، فهي من خير ما قرأت وأعجبتى بصفة خاصة الإطار الأدبي الذى وضعت فيه هذا القدر الهائل من المعلومات وهذا الـ «Tour D'Horizon» الواسع جداً جمع فى صعيد واحد معلومات لم تكن لتتسق فى غير هذا الاطار.

على أنى بلغت من الشيخوخة سنًا وبأساً ما يجعلنى أعرف الطبيب الأزلى أنه رجل يستخدم أشياء لا يعرفها، ليغير حالة لا يعرفها إلى حالة أخرى لا يعرفها وأرجو ألا تكون ثقتك فى الطب بلغت هذا الحد.

وأضيف إلى رأيك فى الكنية أن كثيراً من الأجانب عابوا على القرآن أنه سمى مريم العذراء أخت هارون وقالوا إن هذا خلط بين مريمين، والواقع أن أخت هارون كنية لكل من اسمها مريم، تخليداً لذكر أخت سيدنا موسى... وتخيل إلى أن هناك شيئاً يشبه الكنية بالروسية، ولكل رجل اسم خاص يناديه به من يريدون أن يظهرها له الاحترام، والكنية عند العرب احترام وكان لا يجوز أن ينادى الرجل بكنيته فى حضرة الخليفة... وسلامى الحار لك وابشك شوقى الشديد إلى الحديث معك فى الأمور العديدة. التى تهتم بها معاً

المخلص

الديباجة

الطبيب الأزلى

لقد شاهدت هواية تاريخ الطب وهي تنمو وتتأصل في قلب صديق في سنى، عرفته منذ طفولته، ثم أحببته وصادفته، ولازمني ولازمته كأي هو، والهوايات تنشأ دون وعى من تهواه، كأنها تبت اتفاقاً على شكل نزوة حين، أو تسلية فنية، أو واجب مفروض، وقد تكون تجربة كبيضة الديك لا تعاد، أو يكثر تكرارها، وهي تغرس في هدوء جذورها في أعماق المرء، وتتواصل مدها إلى كل ميدان من ميادين فكره إلى أن تحتله تماماً، لوقوعها في تربة معدة، تتغذى منها وتغذوها، كما يتغذى النبات من الأرض ويغنيها.

بدأت قصة صديق بألة تصوير، أولع بها فأمست لعبة فراغه، ما لبث أن شغلت جل باله وفتحت له، كسمسة على بابا، عالم الفنون التصويرية والتشكيلية، إذ أخذ ينقل التماثيل والنقوش، ويستفسر معانيها وتواريخها، ومن ثم عنى بتاريخ الأدب وسيرة الفن، وعن طريقها بالتاريخ عامة. ثم شاهد هواياته تنمو وتتفرع ويشتبك بعضها ببعض كالأشجار الاستوائية التي تدمج فروعها حتى تجعل منها كتلا صلبة مناسكة تسدل ظلها على الغابات، فغاص في سحر الفن وفي فن السحر، وهو في كل هذا يتفقد العنصر الإنسان فيها، فأنحدر إلى علوم الإنسان، ووجد - آخر مطافه - الطب، الذي يدمج الجسد والروح والشخص والبيئة في صورة متكاملة للإنسان، وجاه أقوم سبيل إلى المثل التي أشاد لها ترانس⁽¹⁾، والتي اتخذ هو منها شعاراً: «إن من البشر وما من شيء بشري غريب عني». فصهر كل ما أحبه في معدن لمع كالمرآة في ذهنه وعكس شعاعاً سفرت في ضوءه أعماق لم يسبق له رؤيتها، وقد استمدته من النظرة التاريخية التي تنير اليوم بشعلة الأمل.

كنت ذات يوم في صحبته نطلع حسب عادتنا على بعض النصوص القديمة ونتجادل في معانيها، إلى أن أعيانا التعب، وأحرفت عيوننا بأجخرة اللفائف المحترقة، وأطبقت

جفوننا. وعندما فتحناها رأينا السنة السحب المتصاعدة من هرم لفائف التبغ المترامية، ترسم سماء شخص جلس في مواجهتنا في هدوء، وكأنه ينتظر منا بدء الحديث. لم ندر كيف دخل ولا من أين أتى، شكله متموج وهندامه متغير تبعاً لنزوات الأبخرة، تعلق رأسه قلنسوة فرعونية تارة، وعمامة عربية تارة، أو قبعة الفرنجة تارة أخرى، وأوضح ما في وجهه ابتسامة دعتة تم على رقة وطيبة في مزيج من السخرية التي لا تخلو من العطف والحنو.

سأله صديق: «من أنت؟».

فأجاب: «متى»

قلت: «إنما يسألك عن اسمك، وقد اقتحمت داره، فكيف نجيبه: متى؟».

أجاب بهدوء: «إن الطبيب الأزلي الخالد، وإن كنت اليوم فلاناً والغد علاناً، فإن روحى هم روح الطب، وقلبي وذهني لا يتبدلان. أليس عصركم هو الذى أضاف بعداً رابعاً إلى أبعادنا الثلاثة، ثم فسره بأنه الزمن؟ أتكتمل أية قضية إن لم يذكر سيرها الزمنى؟ إذا سألتنى عن لون السماء حق لى سؤالك: أتطلب لونها فى الصبح أم فى المساء؟ ولو استفهمتنى ارتفاع البحر أجبتك: «متى، أعند المد أم الجزر؟ لقد حملت أسماء شتى فى أزمنة مختلفة^(١). كنت، منذ خمسين قرناً، طبيب الأسنان (حسى - رع) زميل (أعجب) الذى أله الفرس والأغريق، ثم كنت «أيروى» طبيب العيون والأمعاء والشرح وحاكم العقارب، وألفت فناً فى الطب عندما كنت (تنجر حتب)، واتهمت عندما كنت (أيروى) فى مؤامرة لقلب رمسيس الثالث^(٢)، وأعدت بناء مدرسة بأمر سيدى (دارا) بعد أن دمر قبيز معابد مصر ومدارسها عندما عاد من حملته الفاشلة فى الجنوب وشاهد الاحتفال بعيد الحصاد فظن الشعب يتهج لهزيمة^(٣)».

- كنت إذن (أدجاحور سنت)! لقد أعجيبني تمثالك فى متحف الفاتيكان (شكل ٣-٢٣) وقرأت وصف رحلتك المقوش عليه. ولكن، ذكرت أنك كنت متخصصاً فى الأسنان، ثم فى أمراض العيون والبطن، وهذا قبل اليوم بأربعة آلاف سنة وتزيد، فهل يادر الأطباء يتخصصون منذ ذلك الوقت السحيق ونحن نعد التخصص تقديماً حديثاً؟ ثم ما معنى (حاكم العقارب)؟

ضحك وقال : «إننا، لعجزنا إزاء لسع العقارب ولدغ الثعابين، كنا نلجأ إلى الصلوات والدعاءات، وقد مارست هذا اللون من الطب اللاهوتى إلى جانب الطب التجريبي، ومن هنا جاء لقبى هذا، أما سبب التخصص المبكر فهو أن سر وحدة الجسم الأدمى، المبنية على اتصال أجزائه بوساطة الدم السائر فى الأوعية والقوى الجارية فى الأعصاب، كان خفياً عنا بعد، فقسمنا الجسم، تبعاً لشكله الخارجى، إلى رأس ووطن وقدم وعين وأسنان وما إليها، ولا يخفى عليكم أن هذه الصورة المتأصلة فى أذهاننا، وإن كانت أقرب إلى التعاريف اللفظية منها إلى الحقائق التشريحية، تتكشف بوضوح تام فى خلال الاضطرابات النفسية غير العضوية التى تصيب بالشلل أو فقدان الحس أشطاراً من الجسم تابعة لهذا التوزيع، وقد راق هذا التقسيم البدئى عيون أولئك الإغريق من المتأخرين الذين توهموا وجود روابط بين الكواكب والأطراف، تسيطر بحكمها الأولى على الثانية، وهى فكرة سادت عالم الطب حتى عهد النهضة وبعده، ومازال الكثيرون منكم آخذين بها، كما أنها شاعت بين طبقات الشعب غير المثقفة، التى استبدلت بالأفلاك القديسين والأولياء، فأسندت إلى هؤلاء شبه تخصص، ينفرد بموجبه كل منهم بمرض يشفيه.

قلت فى إعجاب :

إنك جمعت فى صورة واحدة مظاهر تبدو، أول وهلة، مستقلة، إذ أن لم أتصور قط وجود أية علاقة بين الشلل الهستيرى وتخصص الأطباء فى باكورة التاريخ، فقد أفهمتنى فى لحظة حقيقة فاتنتى سنين، وما دمت كريماً هذا الكرم بمعلوماتك، هل لى أن أسأل عن تاريخ وصول التخصص إلى أوجه؟ وهل كان له الشأن نفسه فى البلاد الأخرى؟

- عزيزى، إن تاريخ التخصص وازى خط سير النظريات الفسيولوجية، لأن الطب ما هو إلا ثمرة من ثمار عصره، يتغذى منه ويتلون به، يختلف بدو المرض فى عينه عند كل منعطف يسلكه. لقد حسبت القرون الوسطى المجذومين من الملعونين ونبذتهم من بين نوصم، ولم ير إنسان عهد النهضة حرجاً من العدوى التناسلية، وتلون الدرن فى العصر الرومانتيكى بلون شاعرى أنيق، وفى صدر عصر الصناعة عدت الأمراض الصناعية إتاوة العمل الطبيعية.

علقت على هذا :

ولكل شعب ما هو جدير به من الطب.

قال :

أجل، ولا يفيد إلا ما بوائمه. إن فنا ينبع من أذهاننا وعقائدنا وأوهامنا، وكل ما أسماه فلاسفة الألمان نظرتنا الكونية Weltanschauung كإفراز منها، ولذا فإن التخصص العضوي لم يدم طويلاً، وقد زال تماماً عندما انتشرت النظريات الجديدة التي صورت الجسم في صورة وحدة متكاملة، وبالتالي لم يحظ التخصص عند أطباء الإغريق بالمكانة التي وصل إليها عند المصريين، لأن طبهم، كما اعتدنا تعريفه، هو إنتاج القرن السادس ق. م. أي عهد أبقرات، الذي تلا ذروة الطب المصري بعشرة قرون، والذي دمج فلاسفة الإغريق في غرضونه أفكار (فثاغورس) بشأن قداسة الرقم ٤، في نظريات أنبا دقليس، فتصوروا العالم مؤلفاً من أربعة أركان هي الماء والهواء والنار والتراب، متصفة بأربع خواص هي الرطوبة واليبس والبرودة والسخونة، وافتعلوا أربعة أخلاط خمنوا الجسم مكوناً منها، هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، وربطوها بالأركان الأربعة والكيفيات الأربع وادعوا أن نسبها تحدد الصحة أو المرض. فلم يكن في هذا النظام المتناسك مجال لتقسيم الجسم تقسماً قد نسميه «إقليمياً». ومع ذلك فإن الشباب الإغريق - تبعاً لتصوير كامن في ذهن كل إنسان - كان يقدم القرابين لإله الطب اسقلابيوس على شكل الجزء المريض من الجسم غير مبال بنظريات فلاسفته.

وما دمتنا نتحدث عن تأثير العقائد في الطب فإن البابليين - بدافع من عقائدهم آمنوا ببلقنه^(٦) الجسم ووزعوا أجزائه على آهة مختلفة، فكان السحرة يتلون تعاويذ تربط بين كل عضو وبين إله محدد.

- قل لي شيئاً، أيها الشيخ الجليل، عن نشأة الطب كما عاصرتها.

أجابني : يا بني يجدر بنا أولاً أن نعرّف الطب، ما يعنيه اليوم، وما كان معناه في مختلف الحقب. إنكم اليوم أعضاء مهنة تراقبها نقابة وتنظمها الدولة، وهما إذ تمنحان الطبيب سلطات خطيرة وحقوقاً واسعة تفرضان عليه الخضوع إلى امتحانات وقيود تكاد تكون دولية في منسوبيها ومعانيها.

أما في الزمن الغابر فلم يكن الفيصل قد رسم بعد بين الطب وأضراب المعرفة الأخرى، ولم يكن الفارق جلياً بين الطيب وغيره من المثقفين.

وإذا نظرنا إلى أهداف الطب نظرة واسعة، وجدناها تشمل بصفة أساسية حماية الفرد والمجتمع من كل ما يضر بسلامتها الصحية، وإصلاح الأذى إذا ما أصابها، وتلك العوامل المؤذية لم تحدد بالعدوى أو الجروح، ولكنها شملت كل انحراف عن نموذج مثالي سمى الصحة، وكذلك لم يحدد العلاج أو الوقاية بالجراحة والعقاقير ولكنها شملت كل طريقة مجدية وفعالة.

قلت: وهل كان لكم إلى معرفة فاعليتها سبيل؟

قال: كنا نستتجها عن الخبرة ونستقرئها من تصوراتنا لأسرار الكون. والنوع الأول قدم ألواناً من العلاج تكاد تكون فطرية، مثل الراحة والحمية والتدفئة والمسهلات؛ والنوع الثاني اصطفي بتفكيرنا، فأدخل السحر في بابل، والمنطق في اليونان، والخبرة في الإسلام، والتجربة في عصر النهضة.

قلت: إن هذا يبرر اعتقادي بأن دراسة العلوم غير الطبية في عصر ما - كالقانون أو الفلسفة أو الدين - لا غنى عنها في دراسة تاريخ مهنتنا. ولكن أفدس أيها الأستاذ المبجل، ما كان حظ كل من الخبرة والتصور في نشأة الطب؟ أبداً عملياً تجريبياً تبعاً لمقتضيات الحياة اليومية، ولم يصطبغ بالأساليب الدينية والسحرية إلا بعد ما أفاق فضول ذهن الإنسان، أم بدأ بالسحر؟

أجاب: إن أجد في سؤالك تبسيطاً قد لا تتحملة حقيقة الواقع - فإن السحر والتجربة اندجباً منذ أول أيامها، بل إنها كادا يترادفان. إذ أن كل الحضارات استهلكت بعصر أسند قوى خفية إلى كل ما أحاط به من معالم وأحداث، وأمن بتحكمها في كل صغيرة وكبيرة في الكون، وكيف نعيب على الأجداد هذا وقد دفعوا إليه بحكم غريزتين: **الأولى:** القلق من المجهول، وبالتالي الاطمئنان إلى أى تفسير له، والإيمان بالسببية المطلقة، مثال: لئن أصيب شخص في خلال معركة، التساؤل عن السبب في إصابته وسلام رفيقه، وبالتالي نسبة الضرر إلى توجيه متعمد، وهذا الاتجاه في التفكير واضح في الملحمات القديمة (كالأدسة)، حيث نشاهد الألهة تحمى شخصاً فتدفع عنه السلاح،

وتسدد الطعنة إلى آخر فتلحق به الأذى.

ومن الأمثلة اليومية للسببية الزائفة عدّ يوم شؤماً إلى الأبد إذا حلت مصيبة في اليوم عينه من الأسبوع مصادفة، أو عدّ الطير نذير شؤم إذا تبعت كارثة نعيمه.

أما الغريزة الثانية : فهي قابليتنا للإحياء من وقع التأثيرات الخارجية كالرعد والموسيقا وقرع الطبول.

فسأله صديق :

- هلا تميز لنا بين طب المصريين وطب الإغريق وطب البابليين؟

- يمكن القول إجمالاً، وبإيجاز، أن طب المصريين سيطرت عليه الخبرة، وطب الإغريق الفلسفة، وطب بابل السحر، وكان يحكم على الطبيب في مصر بأمانته في تطبيق التعاليم الرسمية، وفي اليونان بسلامة منطقته ومهارته المنطقية، وفي بابل بدرابته بالطوالع والفتول، وإنما تميز هذا الأخير بالقسوة في العقاب، آخذاً مبدأ المثل بالمثل، المصرح به رسمياً في قانون حامورابي^(٨).

قال صديق : ما نزال نشاهد اليوم، بين أطبائنا، أمثلة من كل من هذه النماذج وكان التاريخ يعيد نفسه دورياً.

قلت : بل إنه يجري جرياً حلزونياً بين قطبين يتراوح بينهما، وإن كان الدوران على مستويات متباعدة، وهذان القطبان يمثلان نظريتين مختلفتين، ترجح الأولى أولية المزاج في إحداث الأمراض، والثانية أولية البيئة. أو بتعبير آخر، أهمية التربة أو البذرة. فأين كان موضعكم من هذين القطبين؟

قال : إننا تصورنا - أول عهدنا بالطب - أن المرض يأتي نتيجة لعوامل دخيلة قد تكون أرواحاً أو حشرات أو ديداناً أو ما إليها، تفتح هذه العناصر الجسم وتدخل أوعيته وتسرى فيها، فتحدث إما عوارض عامة كالحمى والاعياء، وإما ظواهر انبثائية كالخراج والقرح والأورام^(٩) ثم أن إغريق مدرسة فيثاغورس^(١١) اقتبسوا منا هذه الفكرة، وهي الأخذ بالعناصر المرضية السارية في الجسم، وحوها بعدهم أساتذة مدرسة قو^(١٢) التي نبغ فيها أبقراط، إلى عناصر طبيعية، فدمجوها في صلب نظرياتهم

الرباعية التي أسلفنا ذكرها، وعرفوا (المزاج) بأنه تابع لنسبة الأخلاط الأربعة في الجسم، وأولوه المنزلة الأولى في إعداد الجسم لهذا المرض أوداك، وهذا انتقل مركز الثقل من البذرة إلى التربة.

تابع صديق الحديث فقال - وقد دارت اللولة وجاء أمثال بيشا ولاينيك^(١٣) فقارنوا الأعراض بالاحشاء، وفرشوف^(١٤) الذي اعتمد على المجهر النظري، فأنشأ علم الباثالوجيا الخلوية، فأملت الأخلاط السائلة، واتجه النظر إلى الأنسجة الصلبة، ثم جاء باستور^(١٥) الذي كشف عن الجراثيم، فأعيد العامل الدخيل إلى منزلته الأولى واستبدله بأرواحكم وديدانكم وحشراتكم، ونظر إلى المرض على أنه من فعل الجراثيم على الأنسجة.

قلت :

لم يمض زمن طويل قبل أن يقدر البعث للسوائل المرضية في صورة مجمدة، على أيدي أمثال فيدال^(١٦) الذين دأبوا على تحليل السوائل تحليلاً كيميائياً فحلت البولينا والسكر والكولسترول محل السوداء والصفراء والبلغم.

تمهل محادثنا ونظر إلينا نظرة غامضة وقال :

ولكنكم ما تزالون في حيرة شديدة، أفى قلدرتكم تعريف المرض، أى مرض من تلك الأمراض التي تكثر مشاهدتها؟ كيف تعرفون مرض التيفود الذي يسميه بشلوس إيرس؟ هل هو مجرد اقتحام هذا المكروب للجسم؟

- كلا، فإن الجرثومة قد تؤم الجسم وتأوى فيه سنين طويلة دون حدوث مرض ظاهر، كما فعلت في (مارى التيفودية) الطاهية الأمريكية التي تسببت فيما لا يقل عن ثلاث وخمسين حالة تيفود توفيت ثلاث منها دون أن تصاب هى بأى أذى.

- أهو صورة الحمى التيفودية؟

- كلا، فإن حميات مماثلة في الشكل قد تصاحب إصابات بجراثيم أخرى، كما أن جرثومة إيرس قد تصحبها حالات تختلف عن الحمى التيفودية كل الاختلاف، كالجرباج أو التهاب السمحاق أو أنواع من الروماتزم أو التهاب حويصلة الصفراء.

قال صديق : عدنا إذن إلى أهمية التربة أو المزاج، الذي يكيف استجابة الجسم إلى

أى غزو أو اعتداء، وهذا يرجح ما ذهب إليه كرتشم^(١٧) وأمثاله ممن بوبوا طبائع الإنسان حسب شكله ونسب مقاييسه، وقد ثبتت صحة استنتاجهم إلى حد بعيد.

تحدانا محادثنا :

أتعد هذا جديداً؟ لقد سبقكم الإغريق والرومان في هذا الحقل وبوبوا أيضاً الأشكال، وربطوا بين كل من الشكل والطابع والمزاج والأحشاء والأمراض وبين الأجرام المهيمنة وقت الولادة. وها أنتم مازلتم تنعتون المعتوهين بالقمريين (Lunatics)، وتقولون عن كيثي المزاج إنهم زحليون، وعن عجي السلطة وسريعى الغضب إنهم أسديون.

أعترض صديق كأنه في حلم :

إن حدس الشعراء أصدق من تحقيق العلماء، لقد قال شيكسبير: « ليس العيب في فلحك وإنما العيب فيك » وكأنه تنبأ بجزئيات نوايا الخلايا التي نسميها (الجينة) Genes، وهى الحاملة منذ لحظة تكوين الأجنة للصفات الوراثية، بفضل مراكز قوى تحويها هى التي تحدد كل مميزات الجسم، كلون العينين أو طول الذراعين، وهذا بواسطة خائر تسيطر على التفاعلات الكيماوية، وقد يكون الكشف عنها ملتبس حاملي لواء الكيمياء بمعضدى سيطرة النسيج، ونهاية اللولة التى حيرت الطب منذ نشأته، بانطباق قطبيها :

ضحك محاورنا ضحكة كاتمة :

أراكم تعيرون ماضيها أهمية لم يتبادر إلى أذهاننا إعارته مثلها، وقد راقبت جهودكم المضنية دون تفهم دوافعها، أنتظلمون حقاً إلى حقائق تاريخية ثابتة؟

أجابه صديق :

أيها الزائر الجليل، إن على المؤرخ، إذا ارتفع إلى مستوى أهله إلى هذه التسمية، أن يستخدم كل الوسائل المتاحة له للحصول على بغيته، وألا يكتفى بجمع الأحداث وتواريفها، والاطلاع على النصوص والروايات، والتنقيب عن المباني المنشرة والبقايا البشرية المهالكة وما إليها، وإنما عليه امتحان حصيلته في أضواء مختلفة، كالتجريب الذى يسلط على اللوحات الفنية الأشاعات السينية والبنفسجية وتحت الحمراء قبل البت في أصالتها، أما الأضواء التى يجب علينا إعدادها لتسلطها على قضاياها، فهى تلك التى نستمدنا من مميزات الحقبة التى نحن فى صدها، أى من الجو الذى سادها، وهو

يشمل العقائد الدينية، والأوضاع الاجتماعية، والإطارات السياسية، والمنح الإقليمي وشكل عام فلسفة العصر وببته.

قال :

أستحملون في أنفسكم موسوعات مصنفة من العلم باللغات القديمة، وعلم الأديان، وتفسير النقوش والرسوم، والإنتاج الفني، والبقايا البشرية والمنزلية، والقصص والروايات، مع ما في كل هذه الأبواب من صعوبات ومعوقات تحول دون اجتيازها؟ إنه لم يجب عنى قط - على سبيل المثال - الاجتهاد فى نقل علمائكم للنصوص المبروغلفية أو المسارية إلى اللغات الحديثة، كيف يدعون الإحاطة بمدلولاتها وهم قلما يتفقون عليها، لقد ترجم إبل نبذة : «نزف من قلفة ختان»^(١٨) وأخرى : «علاج سقوط الرحم»^(١٩) فى حين أن جرايو ترجمها : «نزف بسبب شوكة سنط»^(٢٠) وعلاج لرفع ثدى المرأة^(٢١)؟ إنى عندما نقلت فى القرن الخامس عشر ق.م. نسخة من المؤلف الذى أطلقم عليه «بردية إدوين سميت»^(٢٢) لأطلع عليها تلاميذى اضطرتت إلى حشوها بهوامش تفسر العبارات القديمة التى كانت أهملت ونسيت معانيها بعد أن مضى على وضعها خمسة عشر قرناً.

مددت يدى إلى خزانة الكتب وأخذت منها نسخة من هذه البردية :

أجل إنك علقى على الحالة السابعة : «إن حبل الفك هو مجموعة الأوتار التى تربط طرف الفك، وعلبة الرأس هى متوسط فتها بالقرب من المخ، وقد شبتت بالعلبة»، وعلى الحالة الرابعة : «إن عبارة : أريطه فى مرساه» يعنى بها : دعه يلزم نظام حياته السابق دون وصف أى دواء» «وكان بامبرواز بارى^(٢٣) يصرح بعدك بثلاثة آلاف سنة : «إن ضمده والله أبراه»، فإذا كنت تقمصت أيضا (بارى) قل لى، بالله، هل صحىح ما قاله كاتب عنك، إنك إذ دعيت لعلاج هنرى الثالث ملك فرنسا من الجرح البليغ الذى أصاب عينه فى أثناء مبارزة، تست عمق الجرح واختبرت خطورته بادخال عصا فى عين مجرم عليه بسالوت، فى موضع جرح الملك وفى اتجاهه وعمقه^(٢٤)؟

حول مجرى الحديث واستطرد قائلا :

وما أكثر ما أخطأتم فهمي ! إن الألفاظ، كالأحياء، لها تاريخ طبيعي، تولد وتتمو وتطور، وقد نفخى وتزول، ولكنكم تأخذونها على آخر معانيها. فما أكثر ما وقعتم في الحيرة ! خذ مثلاً وصف الإغريق لحبة (زيا) Zea، وهي تعنى اليوم الذرة، وكانت عندهم الحنطة، وأنتم تعلمون أن الذرة لم تصل إلى بلادنا إلا عند عودة بحارة كولومبس من القارة الأمريكية، وكم من لفظة استعملت مجازاً أخذتموها على لفظيتها. هل من المعقول أن ندحك (سن الحمار) أو رأسه^(٢٥) في دهان أو نشربه في شراب كما ادعى المترجمون المتمسكون بحرفية الكلام، في حين أن سن الحمار وما إليها من التسميات الوصفية كانت أسماء نباتات؟ ما بالكم لو أن كاتباً من القرن الثلاثين الميلادي ادعى أنكم تأكلون (عين الجمل) أو تستعملون النباتات التي أسماها الخيال الشعبي نشاشة الذباب Silene Rubella أودم الأخوين Dracaema cinnabari أولسان الفرس Daphne alexandria أو غيرها من تلك التي أطلقتم عليها أسماء تشبيهية؟ هل في استطاعة قارئ عادي قراءة (قانون) ابن سينا، أو (الخواص) للرازي دون الرجوع إلى أمهات اللغة والمعاجم المتخصصة؟ إنا، نحن العرب، نعني بالخوخ نوعاً من الفاكهة في لبنان ونوعاً آخر في مصر، إن كلام العرب من السعة بحيث لا يحيط به إلا نبي^(٢٦) - حسب قول الفقهاء - وقد علق عليهم ابن فارس بقوله «هذا كلام حري أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحداً ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها»، أضف إلى الصعوبات اللفظية الاصطلاحات اللغوية التي تختص بها كل لغة، كسنن العرب في مخالفة ظاهر اللفظ معناه، وحذف أداة النفي، كقولهم «والله أفعل ذاك» تريد «لا أفعل»، وذكر الواحد والمراد الجمع، والعكس، والفرق بين ضدين بحركة، كقولهم: «يخفر» إذا نقص، من أخفر «ويخفر» إذا أجاز، من خفر، واستعمال اللفظة لشئيين متضادين كقولهم الجون للأسود والأبيض، والرجاء للرغبة والخوف، والجلل للشئ الصغير والكبير، وأمثالها ملأت كتب الألفاظ، ثم إنكم تفرون الألفاظ بما لا علاقة له بأصلها، كزعمكم أن اسم منطقة «السيف» مقتبس من لفظة Cif^(٢٧) وهي مختصر عبارة يستعملها مورودو البضائع بالموانئ، على حين أن السيف اسم فصيح لساحل البحر.

- صدقت والله، لقد ورد على مثل هذه الصعوبات في ترجمة إنجليزية لكتاب: «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» الذي وضعه موفق

الدين عبد اللطيف البغدادي نحو سنة ١٢٠٠م. فقد ورد في المقال عن فيضان النيل وأثره على أرض مصر أنه «باتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الإبلير» ويبدو أن المترجمين ظنوا الإبلير هو الإبريز فترجموه الذهب الحر^(٢٨) في حين أن الإبلير هو طمي النيل، ثم إن الاعتماد على التراجم والاختباسات دون الرجوع إلى الأصول يخلد أخطاء المترجمين والمعلقين، وأفضل مثال لهذا ما لحق بنظريات عملاق الطب القديم، الفاضل جالينوس، منذ أن نشرها في القرن الأول الميلادي، فقد عرضها حسين ابن إسحاق في العهد العباسي على شكل، ثم ترجمها ليناكر Linacre ترجمة مباشرة من أصولها اليونانية على شكل آخر، واتضح من آخر تحقيق أجراه سيجل^(٢٩) أن جالينوس أتهم ظلمًا بالوقوع في عدة أخطاء، فقد نسب إليه القول بأن حركة الدم في الأوعية تتم على شكل مد وجزر، وهذا ما لم يجر في كتاباته، وقامت حملات عنيفة ضده آخذة عليه فرضه وجود مسام خفية في حاجز القلب ينفذ عبرها الدم، وكل ما قاله في هذا الصدد إن هذه المسام تكون عمراً إضافياً لفائض الدم، وهو عندما فرض وجود مسام غير مرئية لم يشط أبعد من (هارفي) إذ فرض وجود واصلات بين الشرايين والأوردة لم تكن له إلى رؤيتها سبيل قبل اختراع ليونوك^(٣٠) المجهر النظري، ثم أن صعوبات اللغة ليست العوائق الوحيدة التي يجابهها المؤرخون، فإن كثيراً ما اعترضت على تفسير علماء الآثار لبعض البقايا التي كان أحرق بهم استرشاد المختصين فيها، وقد درجت بعض الحكومات على تشكيل لجان تضم اختصاصات مختلفة على شكل (طواقم) من الباحثين، لتعرض عليهم كل ما يتوسم فيه علاقة بفنهم، ودعوى أذكر على سبيل المثال لما قد يقع فيه المؤرخون وصف دارسي Daressy عالم الآثار الفرنسي لنقش بمقبرة ميريوكا بسقارة، يمثل صاغة يصوغون فلادات من الذهب، ويتميزون بقصر أطرافهم السفلى بالنسبة إلى طول جنوعهم. استغرب دارسي هذا الشئوخ لخبثه بمهارة فنان هذا العهد، فجنح إلى أنهم قصدوا تمثيل الصاغة راكعين، ولكنهم تسرعوا فرسعوا المائدة التي يعملون عليها قبل رسم أطرافهم، فشملت المجال المعد للأطراف، ولم يجدوا مفرًا من وضع الأطراف منبسطة في مجال كان مخصصًا لها وهي منتشية، ومن هنا قصرها النسبي، غير أنه فاتة - وكيف لا - إن الذراعين تميزتا بالقصر نفسه لأن أولئك الصاغة كانوا من الأقسام المصابين بعاهة (الأكوندرويلازيا) التي تتسم بقصر الأطراف لتوقف نموها في سن مبكرة.

«أصبحت يابني وتشخيصك للعاهة سليم، كانت الأقسام تكلف بصياغة الحلبي وبحفظ

الأمثلة والكنوز، لسهولة العثور عليهم إذا ما فروا بها.

اعترض صديقي :

« إن خطر الوقوع في عكس هذا الخطأ أكثر خطورة»، وأتجه نحوي : « وقد وقعت أنت فيه. فقد يفسر الأطباء تفسيرًا طبيًا ظاهرة ذات مدلول رمزي، إنك أسندت مياعة شكل الفرعون أختاتون (شكل ٣ - ٨) إلى حلال في غدده^(٣١)، كما ظنه ماسبيرو من قبلك امرأة، والحقيقة أن هذا الفرعون الموحد تجسم عقيدته، وهي أن إلهة (أتون) هو الخالق الأوحد، لم يشاركه في الخلق غيره، فهو أبو الكون وأمه معًا، جمع في نفسه خصب الذكور والإناث، فكان لا بد له - وهو صورة الإله المتجسدة - من تمثيل نفسه على شكل يجمع بين الجنسين».

قلت :

هذا رأى فئة من علماء الآثار، ولكننا، معشر الأطباء، لن نصدقهم حتى يتم الكشف عن موميائه.

اختفت ابتسامة الزائر وغشت الكتابة وجهه :

لن يحدث هذا أبدًا. إن سيدى أختاتون كان أول من نادى بالتوحيد، وكان مصدر إيمان بني إسرائيل، وناهض عبادة الآلهة التي تسمونها أصنامًا، وكان أقواهم آمون، وقد انتبهك - والأسفاه - كهنة هذا الآله موميائه انتقامًا منه، وأعدموها لثلاثا يسمحوا له بالتمتع بحياته الثانية، ولهذا السبب، ولهتكهم أغلب آثار عاصمته (تل العيارة)^(٣٢)، لن يتاح لكم الوصول إلى الحقائق كاملة أبدًا.

وهنا سألته في فضول وقله لياقة :

وما الذى دعاكم إلى تخنيط الموت؟

أجابني غاضبًا :

إني مندهرس لجهالتك، فضلًا عن حماقتك. إنما حنطنا موتانا لإيماننا باستمرار حياتنا بعد الموت في البيوت التي شيدناها لاستئناف عيشتنا على نمطها الأول، وهى التى اسميتموها أنتم مدافن وكنا نحن نطلق عليها « دور الخلود». لم نوسوس قط بفكرة الموت -

كزعم بعضكم - وإنما بالحياة ومن ثم اهتمامنا بحفظ أجساد أهلنا، سليمة، لتقف أمام الإله صحيحة، ولتستمتع بملذات الحياة كاملة، وتستنشق صبا الشال ليلا، وتلذذ بها بجمرة الشمس نهائاً، وتستطعم ألوان الأطعمة المنقوشة على الجدران، وتنعم بحب الزوجات والأولاد إلى الأبد.

أجبت :

- إن لكل عادة غريبة سبباً معقولاً، لقد وصل اهتمامكم هذا إلى استبدال أطراف صناعية بأطراف الموق المنزوعة، وإلى تركيب الجبائر على الأذرع الميتة إذا كسرها (الخانوتية)، وكنا نجعل الدافع إلى سلوككم الذي، أقل ما يقال عنه إنه يبدو غريباً. ولكن الأدهى في هذا أن هذه العادة، التي كانت طقساً دينياً بحثاً، أفاد منها الطب فوائد غير متوقعة، فإن لف الجثث بالأرطبة بطرق في غاية الفن درّب فئة من الناس تخصصوا في الأرطبة، فعاونوا الأطباء في تجبير الكسور والخلوع عند الأحياء كما كانوا يفعلون بالأموات، وقد ذكر هذا في بردية إدوين سميث.

عدت وفتحت البردية وقرات :

« إن الغطاء الذي يستعمله الطبيب هو رباط موجود بين أيدي المحنطين»، وإلى هذا فإن اعتياد فتح البطون أرشد إلى مواضع الأحشاء وأشكالها، وأسهم في رفع الحظر عن تشريح الموق في عهد البطالمة.

قال :

أجل لم تقم السلطات الإسكندرية صعوبات عندما قنا مع زميلي هيروفلس^(٣٣) وإيرازسراتس^(٣٤) بإجراء الصفات التشريحية والتجارب على الأعصاب والعضلات، وهي التي مكنتنا من تصحيح أخطاء الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يحجمون عن تشريحها ظناً منهم أنه انتهاك لتعاليم الدين، كما أن مقابلة إصابات الأحشاء بالأعراض المرضية رجحت كفة القائلين بأن المرض مبني على أسس عضوية.

قلت :

وفيا يخصنا، فإننا ندين لعادة التحنيط بمعلوماتنا عن حالتكم الصحية، لأن البقايا

البشرية تفشى بأمانة خالصة أسرار الحضارات المنصرمة، لو أنها لا تتعرض للتلف، ولذا فإن معرفتنا لأمراض الماضي تكاد تقتصر على معرفة أمراض العظام والكسور وما استعمل في سبيل علاجها من أشرطة وجبائر، ومع ذلك فإن تشخيصها ليس بالأمر السهل بعد أن نخر فيها الدهر، وهو يشير مناقشات حادة بين أخصائى العلم الذى أطلق عليه (أخيراً بالبيوثولوجى) Palaeopathology أى علم أمراض الأحاث والآثار، حيث نراهم يتجادلون في مؤقراتهم حول سبب تكاثف العظام التى كشف عنها في هذه الجبائنة أو تلك، أهو الزهري، أو الجدام، أو مرض في الدم، أو التهاب غير نوعى، أو ورم؟ وحول تاريخ أول ما وصل الزهري إلى قارتنا، أوفد عليها هدية من أمريكا بواسطة بحارة كولومبس، أم كان متوطناً عندنا من قبل؟

أما فيما يخص عهدكم، فإننا أكثر دراية بمحالتكم الصحية لحفظكم الأنسجة الرخوة في حال تسمح بتفحصها على أدق وجه، وليس بالمجهر النظرى فحسب، وإنما بالمجهر الالكتروني الذى وقفنا على أدق دخائل الخلايا، كالميتوكوندريا، وقد أظهر روفر^(٣٥) فيها، بفضل احتفاظ الأنسجة بهذه الحال الجيدة، بويضات البلهارسيا، وآثار تصلب الشرايين، فضلاً عن أمراض أخرى، وعرفنا أن رمسيس الخامس توفى عقب مرض الجدري، وأن الملكة نفرتارى والفراعنة أمنوفس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى كانوا صلماً، والحق يقال إننا عرفنا بفضلكم عن حالة الفراعنة الصحية ما لا نعرفه عن ملوك القرن الحالى. وما دعنا في ذكر عادات نستغريها إن لم نجد لها حوافز معقولة، فاسمح لى أن استفسر عن أمر عادة أخرى نشمئز لها، وهى الزواج بين الإخوة والأخوات.

أعاد آخر حديثى الغضب إلى عميا عمادى بعد أن كان أزاله اعترافى بفضل التحنيط علينا.

- إنك ما تزال تحكم علينا بمنطق آخر القرن العشرين، اعلم أيها الشاب الغرير، أن نساءنا كن يتمتعن في مجتمعنا بمراكز أرفع مما تمتع به نساؤكم في أكثر بلادكم حضارة وتقدماً، إنهن كن يشاركننا تسالينا ومشغولياتنا، وبصاحبتنا في رحلات القنص وصيد الأسماك، وفي الولائم والاستقبالات الرسمية، وكان لبعضهن شأن خطير في إدارة دفة الدولة، منهن (حاتشبسوت)^(٣٦)، التى جمعت بين قوة الرجال ودعاء النساء وفتنتهن، وانتزعت الصولجان من يدى تحتمس الثالث واستولت على الحكم، والملكة

نيتوكريس^(٣٧)، التي حكمت مصر وانتقلت لأخيها شر انتقام، والملسكة (تيتي)، التي سيطرت على ابنتها أختاتون والتي بلغ ولع زوجها بها - وهو المترف المزواج أمنوفيس الثالث - إلى حد حفر بركة واسعة خصصها لئزهاها المائية، وتوزيع جعران نقش عليه هذا الحادث لحفظ ذكراه، وكل سيدات الأسرة الطيبية اللاتي لعبن دورًا فذًا في الأحداث الهامة التي انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس، ولعل الملكة التي نالت أعظم صيت هي (عح - حنوب) زوج (سقننر) بطل الحملة التي طردت المغتصبين، والتي ورد على شاهدها بمعبد كرنك أنها هي التي ضمت صفوف عسكر مصر وأخذت الثورة. وكانت الوراثة - أحيانًا كثيرة - تتول عن طريق النساء، لأن الأم عدت وصلة السلالة وواهب الحياة، إذ كانت عقيدة أسلافنا - بادئ ذي بدء - أن الذكر ما هو إلا مبدأ منبه لأنقسام البويضة ونموها، وقد جهل بعض البدائيين علاقة العملية الجنسية بالحمل جهلاً تامًا، وانصرفوا إلى أن المرأة قد تلقح من الهواء أو الجن أو أرواح الأجداد .

أضفت :

أو من شظية شجرة جسدت شخصًا، كما روى في قصة الأخوين^(٣٨)، وما تزاو بعض القبائل المتخلفة تؤمن بمثل هذه العقائد، وتحجب الصبيات من ملقحات مزعومة كالأرواح والرياح والأعاصير والحيوانات البرية.

استطرد :

ومع ذلك فقد بكرنا إلى دور الذكور في التكاثر، حتى أن بعض أميراتنا كالأميرة (إيدوت) كانت تلقب بـ (ابنة الملك التي من جسده)^(٣٩)، وإنما لما للكهنة المحافظين من نفوذ، تحجرت تقاليدنا، وأصبح الزواج من الأخوات محبوبًا لهدفه إلى أمرين : أولهما . الاحتفاظ بالإرث من الوقوع في أيدي غريبة، وثانيهما : ضمان التمدد السلالة الملكية من أصلها الإلهي، إذ أن الإله كان أصل الأسر المالكة ومصدرها للحققة في ذلك، ونتيجة لهذه الاعترافات قيد حق الجلوس على العرش بالزواج من أميرة منحدرة من أصل ملكي عن طريق الملكات، لا عن طريق الأماء، أو الأميرات الغريبه التي كان الفصر الملكي مكتنظًا بها، وهذا حتى يتحقق في الأولاد النسب إلى الإله. فكان لزامًا على فرعون، وإن كان ابن الملك - الزواج من أخت أمجبتها الملكة الكبيرة، وكانت تسمى الزوجة

الكبرى، وإلى هذا فإن الصبيان والصبيات كانوا يربون تربية منفصلة فلم تنشأ بينهم مشاعر الأخوة التي استنكرتم من أجلها هذا النوع من الصلات.

قلت :

إن مثل هذه العادات ما يزال ساريًا في بعض أنحاء العالم، دون أن ندرك دوافعها التي بينها لنا بالعودة إلى الماضي، إن أحداث الحضارة ليست مظاهر عابرة تنشأ في مكان ما أو زمان ما، ثم تقطع وتفتى، وإنما هي سلسلة، تطبع كل حلقة منها أثرًا عميقًا في الحلقة التالية، وهذا الأثر يبدو على صعيدين، الفردي والجماعي، فيحق لنا إذن دراسة هذه الآثار لتعييننا على تحرى بعض نواحي التفكير الإنسان.

والمرء يولد شيخًا بتاريخ أسلافه، ويتبع في تكوينه الخطوات التي مروا بها، وقد يتوقف نموه عند حد يماثل مرحلة من هذه المراحل، أو يتكصص إليها، ومن ثم تبدو عليه علامات عدم الوثام الاجتماعي التي تتراوح - حسب مرحلة تحلفه - بين الشنوذ المقبول والاضطراب الذهني الكامل أو الجنون، وكلما تقدمت حضارتنا زاد عدد الذين لا يقدرّون على اللحاق بها، ومن هنا الازدياد في عدد المستشفيات التي تعالج فيها الاضطرابات النفسية. وقد تسنى لعلماء تحليل النفس أمثال فرويد ويونج، تفسير عمليات الذهن الباطن باعتباره عودة إلى تفكير الإنسان البدائي، وهذا بتطبيق المشاهدات الفولكلورية على مشاهدات تتناول سلوك المرضى الموسوسين، أو تفكير الأطفال، أو بعض مظاهر التفكير اللاوعي كالأحلام والأوهام، وبالعكس فقد أمكنهم تفهم عمليات الذهن البدائي بمقارنتها بها في الأطفال والشواذ، ولذا فإن العالم بعلوم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد يكون أقدر على تفسير النصوص القديمة أو العادات الغابرة من زميله عالم اللغات.

وإذا اعتبرنا الطب، وجدنا وسائل التشخيص والعلاج القديمة ما تزال تمارس في قرانا، وبين الشعوب التي لم تُهد إلى العلم بعد، ودعنى أضرب مثلين من طرائق المذكورة في بردية أبرس، وتسلسل استعمالها دون انقطاع من القرن الخامس عشر ق. م. إلى الطب الشعبي اليوم عن طريق الإغريق والقرون الوسطى الأوربية والعرب، هي تشخيص الحمل وجنس الجنين بملاحظة فعل بول الحامل في بعض البلور، وهو ما يزال يمارس في الأناضول (٤٠، ٤١)، وعلاج بعض أمراض النساء بوساطة دم الحيض الذي شاهدنا

استعماله بين بدو جزيرة سيناء(٤٢)، ومايزال جارياً في بعض القرى الأوربية، بل إن مثل هذه العقائد والعادات ما يزال فاشياً في فئة ممن يدعون ثقافة فائقة، على أنهم يضعون الإيمان بالعجب والمعجزات فوق العلم المحقق.

على أن المنهج (الفولكلورى) يسهل على من انغمس في حياة الشعب موضوع دراسته منذ طفولته، في حين أنه يعسر على المستشرقين، بحكم (أوربيتهم) التي تبعدهم عنه، بل قد تؤدي بهم إلى التخطب وارتيكاب أخطاء جسيمة في تناول مسائل غابت عنهم وإن كانت عندنا بديهية. خذ مثلاً ما ورد من عالين تناولوا موضوعاً واحداً، هو ترجمة ابن النفيس. فإن ما يرهوف(٤٣) المستشرق الألمان الذى أمضى قسطاً طويلاً من حياته بمصر، تشكك في تسمية هذا العالم (أبو الحسن)، لأنه لم يتزوج البتة ولم ينجب ابناً يسمى (الحسن)، وكاد الكاتب الإسباني (دل أجوا)(٤٤) ينفي حقيقة تاريخيته، ويؤكد أنه شخص خيالى، لأن اسمه ورد في بعض المخطوطات (على)، وفي الأخرى (أبو الحسن). ومن البديهي أن سبب تعثرهم كان جهلهم عادة الكنى التي لم تكن لشعب غير العرب.

سألنى محدثى: أفدنى عن هذه العادة.

أجبتة: إن الذى دعا العرب إلى الكنى هو الإجلال عن التصريح بالاسم، وهذه السنة، وهى من مفاخرهم، لم يقتصروا بها إلا ذوى الشرف من قومهم - وقل من مشاهير الإسلام من ليست له كنية.

تمم صديق: أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوء اللقب(٤٥)، فهقة زائرنا وقال: ألا ترى أنك، حين تصرح بصعوبة لغتك، تؤكد شكوكى؟ أين تجدون إذن المصفاة التى تفصل بين الحبوب والعصف في أقوال هؤلاء المؤرخين وما هم إلا رواة يتفنون - أولاً وآخرًا - أسر مستمعهم بعجائب يزعمون أنهم شاهدوها. أتصدق تلك الرواية الساذجة التى رواها هيرودوت عن سيدى فرعون إذ زعم أن العمى أصابه عقاباً على تجارته على النيل إذ قذف ربحاً وسط دواماته وسخطة لإفراط فيضانه، وأن وحياً جاءه بعد مضى عشر سنوات بأنه سوف يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع البتة إلا بزوجهها، فجرب بول زوجته ثم بول كثيرات من السيدات، ولما عاد إليه بصره أحرق جميع السيدات اللاتي جريهن، حاشا تلك التى أبصر بعد الاغتسال ببولها فاتخذها زوجاً له(٤٦)؟

- إن هذه القصة تمثل حقًا مالا يستطيع العقل تصديقه، وهناك رواية أخرى من رواياته كذبتها القرائن وهي أن بابل لم تعرف مهنة الطب، وأن المرضى كانوا يعرضون بها في قارعة الطريق، لعل أحدًا من المارة يوصى بعلاج (٤٦ب)، مع أن الأطباء كونوا بها مهنة موضوعة تحت رعاية الدولة وأن اختتام بعض هؤلاء الأطباء وجدت وهي تذكر أسماءهم، فكيف جاءت تلك الروايات على لسان هيروdot وقد مجده المؤرخون واسمونه (أبا التاريخ)؟

- يابني؛ لاينجو أحد - مهما اشتدت شخصيته - من تأثير التيارات السياسية والمصالح العنصرية، ولم يخلص هيروdot من الدعاية السيئة التي نشرها بنو إسرائيل حول سيرة مولاي.

- هذا رأى أستاذنا الدكتور أحمد بدوي (٤٦ج) الذي رجح أن سيدك كان فرعون «الخروج».

أشار الشيخ إلى رف من أرفف المكتبة وقال: أرى عندك كتاب «هيروdot يتحدث عن مصر»، الذي أصدره هذا العالم بمقدمة ثمينة. دعني أتلو عليك ما كتبه بعد أن أعقد عليه الإطراء ووصفه بأنه «ملا الدنيا وشغل الناس»: ما أكثر ماخدع هيروdot المؤرخون بين أيدي التراجمة كما يخدع السائحون اليوم، وما أكثر ما ظهرت بساطة هيروdot حين صدق ما جاء منهم... ومن المحقق أن هيروdot قد خدع فيما سمع من روايات الأدلاء والتراجمة.. ليس من السهل علينا أن نمضي في تصديق هيروdot دون أن نتصور حوائل من الشك لامناص من الوقوف عندها.

هذا، وإن كانت أمانة أحمد بدوي العلمية، أملت عليه التشكك حتى في إنصاف حكمه إذ أضاف: الله يشهد أن الشك لم يثر في نفسى بالنسبة (هيروdot) وحده ولكن بالنسبة لكثيرين غيره، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر في تاريخ وطنى الطويل، وما عانى أسلافنا وعائيتنا نحن من غدر المستعمرين قديمًا وحديثًا.

وهنا تدخل صديق وقال: وما رأيكم في سترابو الذي يعد ثبنا من إثبات الجغرافيا التاريخية، والذي بعد أن أكد أن سنة الختان نشأت في مصر، زعم أن بنى إسرائيل

أخذوا عنها عادي ختان الصبيان وخفض البنات، مع علمنا علم اليقين بأن اليهود لم يخفضوا بناتهم البتة(٤٧)؟

لم يجبه عن سؤاله وكان الحديث في الأمور الدينية حرم عليه، فأسرعت لرفع حرجه :

إن حذرنا من القدامى لا يقل عنه ممن هم أقل قدمًا، كيف نوفق بين إجلال الدهر لابن سينا ورأى البغدادي فيه، إذ صرح بأنه كلما أمعن في كتب ابن سينا ازداد فيها زهادة. . وأن أقوى من أصله ابن سينا بكتابه في الصنعة الذي تم بها فلسفته التي لا تزداد بالتمام إلا نقصًا(٤٨)؟

تكاثفت الغيوم المتصاعدة من اللقائف وأطبقت على الشيخ ستارًا أخفاه عنا لحظة، ثم أسفرت عن خطوط أخذت ترسم وجهًا نحيفًا وعينين ثاقبتين وعمامة مقلمة ضخمة.

- إنه قال عنى هذا وإنما أوق بالثلث، وقد أثرت في حياة أخرى إلى حدة لسانه في (طبقات الأطباء)، وإن كنت قد توخيت الحفة والرقة اللتين تليقان بعالم كان صديق جدى وأستاذ والدى وعمى.

أجبتة في لفة : قل لى، أفادك الله، إن كنت تجسدت فى ابن أب أصيعة، فما سبب إغفالك ابن النفيس فى مصنفك الثمين الذى لاغنى عنه فى معرفة طب الإسلام وأطبائه؟ أحيق ما رواه (ما يرهوف) من أن وتيرة وقعت بينكما فأردت الانتقام منه بعدم ذكر اسمه، وعدم ذكر الأسماء كان من سنن كهنة المصريين وملوكهم إذا ما أرادوا محو ذكر أعدائهم؟

عادت إليه سجاؤه الفرعونية لحظة وقال : السر فى هذا أن الكلام لم يكن فى نظرنا أداة اتصال فحسب، ولكننا كنا نعدده قوة كونية خالقة، وكنا نؤمن بأن الاسم هو المسمى، وأن محوه يبىد صاحبه فيمنعه عن استئناف الحياة بعد الوفاة، وهذا ما فعله كهنة آمون بأختاتون، وتتمس الثالث ومحتشيسوت. ولكن، ما أسرع استنتاجاتكم وما أحققها!

وهنا عاد إليه الهندام العربى : بل إن ذكرت ابن النفيس، وكيف لأفعل وقد

عرفته وزاملته بدمشق ثم بالقاهرة قبل أن أغادر أرض مصر قاصداً صفد. إلا أن ما قلته عن القرشي - كما كنا نسميه أحياناً - جاء ضمن جزء من مذكراك لم يرد على (مولر) ناشر أول طبعة عرقت العالم بمؤلفي، وقد وفق أخيراً الباحث السوري يوسف العرش إلى الكشف في المكتبة الظاهرية بدمشق عن الأثبات الناقصة فبرأ من هذه القرية (٤٩).

وما أن انتهى من هذا الحديث حتى رأيناه يكبر حتى ملأ ميدان نظرنا، وإذا بالرازي يجلس تلقائنا ويشكو في مرارة: لقد اعتاد متحللو لقب المؤرخين - في سذاجة وقد يكون في سوء نية - نقل أغرب الروايات. فلقد حكى ابن خلكان، مقتبساً من ابن جلجل، أن كنت صنفت للمصور كتاباً في إثبات صناعة الكيمياء (٥٠) فأعجبه وحيان بألف دينار، وطلب إليّ أن أخرج ما ذكرته في الكتاب إلى الفعل، وأحضر لي كل ما احتاجه من آلات وعقاقير، وما يليق بالصناعة كاملاً، ثم أتى عجرت عن إنجاز عملي وأن المنصور قال لي: ما اعتقدت أن حكماً يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسها إلى الحكمة ويشغل بها قلوب الناس، وحمل السوط على رأسي، وأمر بأن أضرب بالكتاب على رأسي حتى يتقطع، وكان ذلك الضرب السبب المزعوم في نزول الماء في عيسى وفقدان البصر.

أفاق صديق من تأملات انغمس فيها كالغريق في المحيط وقال:

علمتني الأيام رد أية رواية لا تسندها القرائن والبراهين، حتى إذا زعم راويها أنه عاينها بنفسه. لقد كنت أعمل - منذ ثمان وثلاثين سنة - بقرية متاخمة للقناطر الخيرية بقرب القاهرة، أتوجه إليها صباحاً وأعود منها مساءً، وحدث أن منطاد «جراف زيلين» زار القاهرة خلال طوافه الإعلامي وهبط بمكان معد له بالصحراء لمدة ساعات معدودة، وغداة هذا اليوم ذهبت إلى القرية واجتمعت فيها كعادتي بالأعيان، منهم العمدة وشيخ التجار ورئيس المكتبة، وأنصت في إعجاب لا يفوقه إلا تعجبي وذهولي، إلى رواية المنطاد، وقد أصبحت على ألسنتهم أسطورة، وفحواها أن أهل القرية شاهدوا المنطاد وهو يحوم فوقهم، ثم وهو يطوف على سطح النيل، ويثب من فوق القناطر لمتابعة رحلته النهرية، وأكدوا أنهم رأوه بأعينهم يقلع من فوق سطح النهر إلى السماء، ثم يهبط على اليابسة ليعود إلى القاهرة على الطريق الزراعية، فساورتني عندئذ فكرة مقلقة، وهي أن

مثل هذه الشهادة من قبل أعيان القرية وسلطاتها كانت في العصور المنصرمة تدون في السجلات الرسمية، وتبلغ للسلطات المركزية، وتدخل صلب التاريخ. أما أن الخيال الجماعي يصل إلى هذا الصعيد من الإبداع والابتكار بعد وقوع الحادث بساعات، فهذا ما يشفع (لهيرودوت) وابن خلكان وغيرهما، إذ نقلوا نوادر حكيت بعد حدوثها بقرون.

قلت :

أهى سداجة منهم حقًا؟ أم هل هناك دوافع أخرى تحفز الرواة إلى افتعال قصصهم؟ لقد عرفنا حافزًا منها وهو التشهير السياسى، وآخر هو الرغبة في جذب إعجاب الجماهير، ولكن هناك ما هو أخطر، وهو الأنانية وانتحال أقوال الغير للاعتداد بالنفس، وأبرز بطل في هذا المضمار كان قسطنطين الأفريق الذى رحل من شمال أفريقيا إلى جنوب إيطاليا عملاً بمؤلفات العرب والإغريق، وترجمها إلى اللاتينية دون ذكر أصولها، فاكسب شهرة اغتصبها من غيره، وعد زمنًا طويلًا جهبذًا من عمالقة الطب(٥١).

اعترض معادتنا :

لانس أن الأمانة العلمية لم تكن من مميزات هذه العصور، ولا من متطلبات التصنيف، ولا أن الفضل لقسطنطين في بعث الطب في سالرنو بجنوب إيطاليا، وفي زرع بذرة نشرت طلوعها إلى سائر إيطاليا وإلى مونيلى في فرنسا، فانتجت الزاد الذى غذى النهضة الطبية الأوروبية، والغريب أن عدم التقيد بذكر المراجع استغل استغلالًا عكسيًا، فإن الكثيرين من الكتاب دأبوا على إسناد أقوالهم الشخصية إلى مشاهير الأسلاف لدعم نظرياتهم، أو للتمويه بسعة ثقافتهم، كما تنحلون اليوم أسماء جحا أو أبو نواس أو (ج. ب. شو) في نكاتكم لإثارة ضحك مستمعكم.

أصفت :

إن هذا اللون من الأنانية الفردية لا يكاد يحسب له حساب إذا قورن بما هو أدهى وأمر، وهو نوع من الاعتداد الطائفي أو العنصرى الذى يتخاطف لقم الشهرة ليغدو بها صيت مواطنية مهما كانت تفاهتهم، فيحرف التاريخ بطرق علمية مزيفة. وقد أخذت هذه الظاهرة تبرز حديثًا على شكل يشير إلى حملة دعائية منظمة، دخلتها حوافز نبئت

من الحال السياسية الراهنة، وهي شبيهة بتلك التي أدت منذ ثلاثين قرناً إلى ابتكار رواية عمى فرعون، وقد استهدفت هذه الهجمات أخيراً الطب الإسلامي، فادعى بعضهم أن ألع صفحاته كانت من إنتاج غير العرب.

قاطعي صديق :

إن لهذا النوع من التاريخ الملتزم، أو الموجه - على نمط الأدب الملتزم والموجة - دوافع قوية معروفة، ولكن ما بالكم في إنكار عروبة بعض العرب - وهم عرب، إما بحكم أصلهم أو بحكم دينهم أو لغتهم أو حضارتهم أو بيئتهم - أمثال ابن سينا والرازي، للنيل من الطب الإسلامي.

قال محاورنا وقد ازدادت عمامته وضوحاً وهماً :

لهم ذريعة يتحججون بها في نكران مآثر الطب الإسلامي، وهي أن هذا الطب لم يكن إسلامياً، إذا عني بهذه التسمية أننا، كلنا، كنا ندين بالإسلام، ولم يكن عربياً، إذا قصد بهذا أننا كلنا كنا من أبناء شبه جزيرة العرب، وما أوهى هذه الحجة فإن ازدهار العلوم والفنون خارج شبه جزيرة العرب، وعلى أيد غير عربية في صدر الإسلام، لم يحدث إلا بفضل هذا الدين الإلهي الذي أخصب الكفاءات العقيمة، وكشف العيون المطموسة، وجمع في روضته الطيبة وتحت رعايته المتنورة ثمار كل الأجناس، وزهور كل الأديان، لما فيه من سماح حرر البشر من الخبال الأزلية التي كبلت الفكر من قبله. ألم يأمر الأمبراطور قسطنطين بقصر دراسة مؤلفات أرسطو على أبوابها الأولى وتحريم ما يلي (الصور البلاغية) ؟ ألم نهى - نحن معشر الفلاسفة والأطباء - من الإسكندرية ومن أثينا لتضييق الخناق علينا؟ ثم ألم يهين لنا بنو أمية ومن بعدهم العباسيون الجو الملائم للإنتاج؟ هل فرق الخلفاء بين أطباةهم المسلمين والنصارى واليهود والمجوس والصابئة، وقد سمح النبي عليه الصلاة والسلام باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين، إذ يروى أنه لما مرض سعد بن أبي وقاص في حجة الوداع عادته النبي وقال له «إن لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع آخرون»، ثم قال للمحارث بن كلدة «عالج سعداً بما به» واخارث على غير دين الإسلام، إن هؤلاء المضللين المغالطين يتناسون حقيقة أكيدة وهي أننا، لولا الإسلام، ما استطعنا صقل أزهي حضارة شاهدتها العالم.

أطبق علينا مسكون كثيف هنيئة، ثم أشرق وجهه عن ابتسامة فضول، وبعد تردد
قصير تشجع فقال بسرعة وفي نفس واحد :

أراكم تمضون الليالي في دراسة ماضى مهنتنا، وتقفون عليها قدرًا وفيرًا من
جهودكم، هل لي أن أستفهمكم الفائدة التي تتوقعونها منها، وهى أصبحت ضياع وقت
ومشغلة عقيمة بعد التقدم الذى أحرزه فننا في القرن الماضى - وقد قيل إن عدد
العلميين في خلال خمسين سنة مضت فاق عددهم منذ بدء التاريخ، لقد كان هدفنا،
نحن، من قراءة المؤلفات القديمة البحث عن أصول العلم، لاعتقادنا أنه أوق أسلافنا
كاملا ثم تناقص، أما أنتم لما هو عذرکم في نفص غبار المكتبات؟ أفيدون، أفادكم
الله، هل تجدون في التاريخ متعة مرضية مردها إلى العودة إلى طفولتكم للتهرب من
أعباء سنيكم الرشيدة؟ أم هى أناقة ذهنية تبهرون بها غيركم؟ أو اعتداد بالماضى
لتعويض فراغ الحاضر، كشأن (أولاد الذوات) الذين لا مفخرة لهم إلا في ذكر
أجدادهم؟ ما هى حججتكم في جعلها علمًا مستقلا ذا نظم ومناهج ومؤلفات ومؤتمرات
خاصة به؟ هل تتوقعون العثور على معلومات جديدة، أم تبتغون منها التعالى على
الأسلاف؟

تعجبت من طول هذه المداعاة وشدتها وقلت :

أيها الأستاذ الجليل، حاشى أن أهزأ بما وصلت إليه من المعرفة وأنعالى عليكم، ليس
دور المؤرخ الحكم على صواب النظريات العلمية أو خطئها، وحسبه أن يضمها بين
ما سبقها وما لحق بها، ليحدد دورها في تكوين الفكر البشرى، وليتعرف على ماضيه،
وبالتالى على نفسه، كما نصحه سقراط عندما قال لأحد مريديه «اعرف نفسك».

لاحرج عليكم إن كنتم أقمت نظريات خطأها الزمن، وما النظريات سوى محاولات،
لا معدى عن افتراضها، لضم حصيلة المعلومات المجمعة في صورة موحدة، على أن يقام
البرهان لها أو ضدها بمحك الاختبار، أما فائدتها فهى أنها تكون قاعدة لفروض جديدة
تستحث الباحث إلى ابتداع مزيد من التجارب للبرهان عليها، فإذا ظهرت التناقضات
وجب إهمالها وتشييد بناء جديد يوفق بين كل المعطيات، وهكذا تثير حلقة لا تنطبق إلا
بالوصول إلى الحق، إذا قدر للإنسان يومًا أن يصل إليه.

وهنا اعترضنى صديقى وقال : ومع ذلك فكمن من نظرية مجانية للحقيقة أدت إلى كشف جديدة وقامت بخدمات جلية. إن حضارتنا وكل إنجازاتنا قد بنتها فروض أدركنا اليوم إدراك اليقين بطلانها، وقد أرغمتنا على إهمالها التقدم ذاته الذى هى خلفته، وما أشك فى أن أبهر نظرياتنا التى نتباهى بها، سيرغمتنا ما ستخلفه من التقدم على ركنها على رف مهملات التاريخ، وقد محونا من أذهاننا حتى تلك التأملات التى كنا أرسخنا عليها تصورنا لأركان الكون، فقد أجبرتنا نظرية الكم (Quantum)، التى تقسم شتى مظاهر الطاقة إلى أعداد محددة لا تقبل التجزئة، إلى استبدال صورة جديدة بتلك التى كانت ترسم الكون على شكل متصل قابل لتقسيم لا نهاية له؛ وشئت الفيزياء الحديثة الذرة، التى كنا عددها غير قابلة للقسم أو للتحويل فبيننا عليها الكيمياء التقليدية، كما أتاحت تحويل المعادن الذى لم يكن بأذهاننا إلى قبوله سبيل فى ظل النظريات القديمة؛ وأنكر العلم الحديث وجود الجوهر الذى سماه الفيزيائيون (أثير)، وهو قوام ميكانيكا الأمواج التى وصلت بعلوم الضوء والإشعاع إلى ما وصلت إليه، فلم يستطع العلماء تبرير موقفهم السابق إلا بالتصريح بأن الموجات المزعومة إنما كانت أنسب تصوير للمعادلات الحسابية التى تحكم أغلب خواص الطاقة.

ثم ليس الغرض من جهودنا الوقوف على معلومات جديدة وإن كنا نجد أحياناً فى كنف الماضى أفكاراً تبدو طريفة لأنها وقعت فترة فى طى النسيان.

أما إذا كنا أحمينا هويتنا (تاريخ الأخطاء)، فإننا لم نطلق عليها هذه التسمية لنسخر منها، وإماً لتأكيد قيمتها التعليمية، فن ماثور الحكم «السعيد من اعظ بغيره» والطب، شأنه فى هذا شأن سائر العلوم المعتمدة على الخبرة، حرى بأن يتخذ من هذه الحكمة شعاراً ونبراساً.

قال : وما الطب فى رأيك؟

قلت ؛ إن الطب ملتقى، يتقابل عنده إنسانان، كل منهما ثمرة عصره، وهما الطبيب والعليل، وقد خضعت العلاقات التى ربطت بينهما لموضع كل منها من القوى الدينية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة له، وتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الطب، وإنما عندما نتحدث عن العليل نعبه على شكله الفردى والجماعى، وفى كلا الحالتين تتيح معرفة

ماضيه استقرار مستقبله والتخطيط له إذا وضعت أحداثه الماضية موضع الاحداثيات الرياضية التي تميز معرفة بعضها التكهن بالمجهول منها، ورسم مخطط بياني كامل لها. ولذا فإن حرمان الطالب من إدراك حظ النظريات المنقلب، ينطوي على الإجحاف بحقه وبحق العلم، إذ إن تلقين العلم على أنه حقيقة ثابتة يجمد الذهن ويغلق أبواب التقدم.

وإذا انتقلنا من الفرد إلى الجماعة، فإن الحاجة إلى الخبرات المكتنزة في طي التاريخ أمس والزم، وبخاصة حين نستهدف إزالة مرض متوطن، أو الوقاية من وباء أو التكهن بسيره.

قال محادثنا وقد تموجت ملامحه قبل أن تستقر في شكل ضباط روسي:

لو أن قائد جيوشنا الكونت الكسي أندريفتش أركشيف، وزير دفاع القيصر إسكندر لمس هذه الحقيقة عند ظهور الكوليرا على الحدود بين روسيا والهند، لتجنب القول: «إنه لايسر للجمال أن تنفذ من سم الخياط من أن تحترق الكوليرا صفوفنا» وجنب بلاده هذا الوباء، ولو أن مولاي القيصر نقولا أدركها لترث قبل أن يدفع بجيوشه من بلاده الموبوءة نحو أوربا لإخاد الثورات المتدلعة بها، ورحم مئات الآلاف من موت أنيم، من بينهم قائدان من كبار قواده، المارشال ديتش، والأمير قسطنطين اللذان، بسبب إصابتهما أطلق الجيش على الكوليرا (مرض المارشالات)^(٥٢).

طمس بعينه وكأنه استعرض شريط ذكرياته: «لقد حولت الأمراض مجرى التاريخ يدفع أقوى من أحكام الشرعين ويطش الأباطرة، وهذا ما يجب درجه ليس في مناهج كليات الطب فحسب، وإنما في دراسات كليات الاقتصاد والكليات الحربية، لقد شاهدت بعيني هزيمة (سنخريب) ملك آشور في القرن الثامن ق. م.، عندما انقضت علينا الفئران ونحن معسكرون على منافذ مصر، وقرضت الجعب والأقواس وخمائل الدروع، فولينا الأدبار وسقط منا الكثيرون^(٥٦)؛ وصاحبت جند (سبارتا)، عندما فككتنا، برغم أنوفنا، حصار أثينا خوفاً من العدوى بالطاعون الذي فتك بها^(٥٣)؛ وقد أهلك الاسقربوط الأساطيل، وحال دون كشف القارات المجهولة قروناً عديدة؛ وفشل أول مشروع فتح قناة باناما بسبب تفشي الحمى بين العاملين به؛ وفتكت الالتهابات المعوية بجيوش الحلفاء في جاليبولي إبان الحرب العالمية الأولى؛ وكنت أجهل وأنا أعواد جورج الثالث ملك إنجلترا، أن شذوذه السياسي، وقيل جنونه، الذي أدى إلى ضياع مستعمراته

واستقلال الولايات المتحدة، نتج عن (كروموزوم) مرضى ورثه من آبائه بسبب ما تطلقون عليه اليوم اسم (بورفيريا)^(٥٤)؛ ولو أن الملوك والساسة وهبوا نكحة من الحاسة التاريخية، لأحجموا عن الزواج من الأقارب وحالوا بهذا دون المحلل سلالاتهم وضياح إمبراطورياتهم، وهو أمر غير معالم العالم وأسهم، دون شك، في دفع العالم نحو الديمقراطية.

قال صديقي ساخراً:

لم تنقص هذه الحاسة المستعمرين الذين تغلبوا على قاطني أمريكا الأصليين بتوزيع ثياب مرضاهم المصابين بالجدري عليهم، فأهلكوهم بسلاح أفنك من الرماح والمدافع. صممتنا هنية غائصين في أفكارنا ثم رفع معادننا السكون الذى خيم على الغرفة المعبأة بالدخان:

يا بنى من أهل فنى، إنكم تفنون موقفاً «يطيب فيه النظر إلى الغد كما يطيب فيه النظر إلى أمس، فلا يفرد فيه الفخر بالأباء دون الأمل في الأبناء»^(٥٥)، إن أشيد بجولاتكم في ماضى أشعل شعلة ضئيلة حوتقوها إلى نور متلائي وهاج، وأثنى بوفاتكم لأجيال من الأطباء تناقلوا عبثاً كنتم عليه أقدر منهم، إلا أنه إذا خفت ناحية منه، تناقلت نواحيه الأخرى، إن المرض لن يزول ولن ينتهى ولن يغلب، وإنما كالعدو المكبر، ينتقل من حصن إلى آخر، إذا زفتموه في جحر، شن عليكم هجماته من جحر آخر، فإن كنتم تغلبم على الأمراض المعدية التى كانت تفنك بنا، فقد خلقت لكم أمراض الشيخوخة والسرطان مشاكل علاجية واجتماعية أخطر شأناً وأعقد حلاً. لقد كهلت قطان أكثر البلاد حضارة، وحملت الدول أعباء لن تقدر عليها في المستقبل فعليكم الآن، فضلاً عن المرض، دراسة الإنسان بأكمله على أنه جزء من بيئته، فقد قال فرشوف إن انتشار الأوبئة مظهر من مظاهر عدم التوازن الاجتماعى والثقافى وخلل فى توازننا. وهو الذى أفصح برأيه بأن الطب علم اجتماعى ولن يم إلا بالتغلب على عناصر ثقافية سلبية طالما أخرجت المشروعات الصحية؛ لا تنسوا المعارضات الشديدة من قبل أصحاب الأملاك على مشاريع صرف الفضلات ومن قبل أصحاب الصناعات على إجراءات منع تلوث الهواء والمياه لأنها تتعارض مع حقوق الملكية الخاصة، وقد أصبحت هذه المشاكل على رأس قائمة المسائل التى تستوجب حلولاً جذرية.

فإذا أردتم الاعتاز بالماضى وجب عليكم التذرع بقدر كبير من الصبر والمثابرة. لقد أصبح البحث عن تاريخنا عملاً معقداً، جعل من كل متحف معهد بحوث بحوى قبساً من التحف وأطباقاً من المختبرات، وقد تعددت وسائل البحث، واقتبست لها كل الطرائق المستحدثة فضلاً عن الفنون المعهودة، وما إليها من الطرائق التي ما يبرح الإنسان يبتكرها (انظر مقال الختام)، على ألا تنسوا العنصر البشرى فيها، فإن العلم إذا فصل عن الأدب أمسى آلياً غاشماً، كما أن الأدب إذا سحب منه قوامه العلمى كان دوى طبل أجوف... لا تنقضى سنة واحدة دون إعادة فتح ملفات قضايا كان يحسب أمرها منهيّاً، أنها هوائية، إذا استخدمت استخداماً نفعياً، لإرساء قواعد تنطلقون منها إلى مستقبل أفضل، وإذا وضعت التذكر فى خدمة الآمال البشرية، إنها هوائية جديدة بكل احترام وبكامل العناية.. إنها دراسة لا نهاية لها.

وما أن تلفظ هذه الكلمات الأخيرة حتى سمعنا دوى زجاج ينكسر، ولفحتنا ربح هبت فجأة من النوافذ، وغمرتنا أوراق متطيرة، وإذا بعيني تفتتح على سحب ذائبة، حاملة معها وجهاً محبوباً، مخلقة وراءها ابتسامة عطف، ابتسامة بدون وجه، كالموجات التي سحب الفيزيائيون من تحتها قوامها من الأثير.